

العقل - المال - الجاه

للاستاذ الجليل محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية

[وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها]

قرآن كريم

[أقل ما يجب عليكم لله ألا تستعينوا بمعتمته على موصيته]

على بن أبي طالب

إن شكر المتفضل ثمرة إحساس أرق يستشعره ذوق الفطر السليمة ، والخصال القويمة .
إذ حب المحسن مركز في الجيلة ، مستقر في أصل الخلقة ، ثابت في غرس الطبيعة .

أما محمد الجليل ، ونكران العرف ، وغطى النعمة ، فشذوذ في الفطرة ، وجنوح عن
الإحسانات الشريفة والعواطف النبيلة .

فأولو النظر البعيد والرأى السديد ، رأوا أن نجاتهم في الاعتصام بحبل الله ، والبلوغ
إلى فسيح ساحته ، فعاشوا في طمأنينة وأمنة ، وعزة ومنعة ، وأما من خبث طينتهم
وتكدرت طويتهم فأولئك قوم لؤمت طباعهم ، وانكست أوضاعهم ، إذ كان عندهم
موجب الشكر أداة الوزر ، ومهبط العرفان مبعث النكران ، مع أن النفوس الكريمة ، إذا لم
تقو على مقابلة الإحسان بالإحسان لا تجنح إلى رده بالإساءة والعدوان .

وقد منح الله عطايا جمّة ، وتفضل جل علاه ، نفعنا بالعقل ، وكرّمنا بالمال ، وزينا
بالبجاه في الحياة . وأولى هذه النعم العقل ، إذ هو أعظم المواهب ، لا تنفى عنه نعمة ، ولا
تقوم مقامه موهبة ، يصدر عنه العلم صدور الرؤية عن البصر ، والنور عن القمر ، والأريج
عن الزهر .

فهنيئاً لمن أعماله فيما يقربه إلى ربه ، من علم ينير له ولأمته الصبيل ، أو اختراع يذلّل
لهم العمل ، أو كشف يوسع دائرة الأمل ، أو إحياء سنة ترفع النفس من حمأة الرذيلة إلى
منازل العليين الأبرار ، وفوزاً لمن هدى بعقله الضال ، وأرشد بفكره الحائر ، وسدّد بنور
يقينه خطى السائر .

ومن الجنوح بنعمة العقل عن وجوهها المشروعة ، شغلها بالأفكار السامة ، والمبادئ الضارة ، والعقائد الزائفة ، والمذاهب الحاسدة ، التي إذا تفشت يجتمع نخوت عظامه وحلت أخلاقه ونظامه ، وقوضت بنيانه ، وعجت فناءه .

ومن كفران نعمة العقل نبذ الحق مع نضوع برهانه ، والخضوع للهوى مع ظهور بطلانه ، أو بذل الجهد في إبطال الحق ، والبأس الباطل لباسه بترئة جان ، أو إدانة برىء ، أو تضييع حق على صاحبه ، أو إثبات شيء لغير أهله ” أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ ”

والمال : جعله الله أحد الشارين للذين تتعلّى بهما الحياة بقوله جل ثناؤه ” المال والبنون زينة الحياة الدنيا ” . وحث على السعى في اكتسابه بقوله تعالى : ” فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ” وقال عليه السلام : ” اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدا ، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدا ” .

ولما كانت الرغبة في المال فطرية قد تدفع المرء الى التهالك عليه ، والبحث عن الذهب حيثما وجد اليه سبيلا ، أوجب الله أن يطلب من الوجوه المشروعة : قال عليه السلام ” أيها الناس إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ” يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ” وقال : ” يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ” ثم قال : الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، فأني يستجاب له ؟

وقد عني الاسلام بالمال ، لأنه تصان به النفس من الامتهان ، وتفرس الكرامة في القلوب وتكثر الأصدقاء والأنصار ، وتدفع طوارئ الحداث ، ويستعان به على طلب العلم والعمل والذكروالفكر ، وجميع وجوه البر .

لذلك كله أمرنا الله تعالى بالمحافظة على المال وسلوك سبيل الاعتدال في التصرف فيه فلا تفرط ولا إفراط ، ولا إسراف ولا تقتير ، قال تعالى : ” ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ” .

ومدح المستدين في الإنفاق ، وجملهم في عداد عباده الذين يحبهم قال جل ثناؤه : ” والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ” .

ونهى عن التبذير وذم المبذرين ، وجعلهم فى عداد الشياطين . قال تعالى : ” ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا “ .

ومن كفران نعمة المال الضن بها على مستحقيها ، كمنع الزكاة ، التى فرضها الله على القادرين ، وهتد من شغ بها على مستحقيها بأشد العذاب ، قال تعالى ” ولا تحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله ذو خيرا لهم ، بل حوشر لهم ، سيطقون ما بخلوا به يوم اقيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خير “ .

ومن ذلك أيضا حرمان الأجير أجره ، أو نقص ما اتفق عليه مع أن النبي عليه السلام يأمرنا بإعطاء الأجير أجره قبل أن يجف عرقه .

ومن الحيد بنعمة المال عن سبيلها المشروع ، استعمالها وسيلة إلى إفساد الضمائر ، والجنابة على الأخلاق ، بالرشوة ، والإلداء إلى الحكم ، لاغتصاب الحقوق ، أو إهدار الواجبات ، والله تعالى يقول : ” ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكم ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم ، وأنتم تعلمون “ .

ومن الرشوة المفقودة الهادمة لكان المجتمع ، ما ينفقه بعض المرشحين - للنيابة - لينتخاب على منافسه ، يغرى به الناخبين ، ويشتري ضمائرهم ، ويستعين بهم على وصفه بحاسن يعلم الله أن بينه وبينها أمدا بعيدا ، وأتاهم منافسه بمساوئ ، لم يعرف بها ، وهى بصاحبهم أنسب ، وإليه أقرب : وفى هذا غرس للاحتقاد والأضغان ، وإيقاظ لنار الفتنة ، التى تفرق بين المؤمنين ، وتباعد الإخاء والإحسان والتعاون والتواد عن المواطنين .

ومن الضلال المبين إنفاق الأموال فى ارتكاب الموبقات وانتهاك الحرمات ، وسفك الدماء ، وإزهاق الأرواح ، والسعى بالدس بين الناس ، والاشتغال بها عن واجبات الله وحقوقه .

ومن آلاء المولى على بعض عباده المجدودين إنعامه بالجاء : وهو أن يكون للرء حظ مرموق ، من مكانة رفيعة ، أو رتبة سامية ، أو منصب خطير ، تتوجه نحوه الآمال ، وحق هذه النعمة على صاحبها أن يكون أغيره قدوة صالحة ، يحذو حذوه ، وينهج نهجه ، ويقتنى أثره .

وإذا بلغ به جاهه مجالسة الملوك والأمراء يكون حريصا على قول الحق ، فإنه ليس أفضل عند الله من كلمة حق عند سلطان جائر .

وواجهه فى هذه الحال النصيح والإرشاد ، إلى أقوم طريق بأسلوب رقيق كيس ، لا ينفروا ولا يدعو إلى الإصرار ، قال تعالى : ” يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا “ وأما إذا جرى فى الباطل فقد ضل وأضل .

وكما يجب أن يقول الحق في غير ضعف ولا خوف ، وأن ينصح في غير لوم ولا عنف ، يجب أن يشفع في غير وزر ولا حد ، فإن الشافع في الخير ماجور ، والشافع في الشر مأزور ، قال تعالى : ” من يشفع شفاعاً حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعاً سيئة يكن له كفل منها “ .

ولا ريب في أن المنازل الرفيعة في مساعدة الناس بالمال أو بالعلم أو بالجاه ، لأن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبههم إلى الله أنفعهم لعياله ، ” ومن نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، ومن يتر على معسر يتر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه “

وحق على ذي الجاه أن يصلح بين الناس ، ويعمل على إزالة ما يقع بينهم من أحقاد ومنازعات ومخاصات ، فقد قال رسول الله عليه السلام ؟ ” إلا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول ، تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين “ .

وأما من يستخدم جاهه في ظلم الناس ، بأى لون من ألوانه ، أو تسخيرهم في منافعه ، بلا مقابل ، أو الحصول على ما ليس له حق في نياله ، أو الحيلولة دون وصول حق إلى صاحبه أو مأكلة برى ، أو براءة متهم ، أو إخلال بواجب ، أو تقصير في حق ، أو في أية معصية من معاصي الله — من يعمل شيئاً من ذلك ، فقد كفر نعمة الجاه ، بل أحلها إلى شرقمة . قال الله تعالى : ” ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار “ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال ” إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح في النار “ .

وبعد ، فهذه نعم ثلاث من نعم الله الجليلة : العقل ، والمال ، والجاه ، كان عرفان الجليل يحتم علينا أن نقدم لله تعالى كفاءها من الشكر الجزيل ، بتوجيهها فيما خلقت له من مقصد نبيل ، لا أن نتخذها أداة المعصية ، كما قال الامام على كرم الله وجهه : ” أقل ما يجب عليكم لله ألا تستعينوا بنعمته على معصيته “ . وفقنا الله إلى سواء السبيل باتباع النبي الكريم .

محمد احمد جاد المولى